

مقدمة البحث

● أهمية البحث ودوافعه:

إن مسالك التعليل تعتبر أحد الأقطاب الكبرى في علمي الفقه والأصول على حد سواء، كما أنها تمثل نسقا معرفيا متكاملًا، لكنه لا زال متواريا خلف ركام هائل من الخلافات الأصولية ذات أبعاد متنوعة؛ ويمكن إرجاع أهمية البحث في هذا الموضوع إلى الأسباب الآتية:

* أن مسالك التعليل هي عمدة الاجتهاد والقياس على وجه الخصوص؛ فهي في النهاية آليات لتوسيع النسق الشرعي، وضمان حضور الشريعة للجواب عن المستجدات التي لا تتناهى.

* أن مسالك التعليل ليست مجرد مبحث ضمن أركان القياس؛ فإنها، بالإضافة إلى كونها محور التفكير القياسي وإشكاليته الرئيسة، فهي أيضا من أكثر المباحث دورانا وتأثيرا في المنظومة الأصولية؛ فلا يكاد مبحث من مباحثها يخلو من ذكرها إما أصالة أو تبعا.

* أن مسالك التعليل من المداخل الرئيسة لترشيد الاجتهاد

المقاصدي، ووضعه على المسار الصحيح المنضبط، وشرط من شروط ادعاء التخصص في المقاصد. وقد ظن كثير من الباحثين، مجازة لـ «موضة» المقاصد، أنها تغني الباحث عن مسائل أصول الفقه عموماً، ومسائل التعليل خصوصاً، وهو منشأ كل خلل واضطراب، لا سيما عند بعض الاتجاهات الأيديولوجية التي اتخذت المقاصد مطية لتعطيل النصوص.

* أن مسالك التعليل من المواضيع التي تعتاص على أغلب الباحثين في الفقه وأصوله، وذلك يستدعي بحثاً جاداً وميسراً، يضبط معاهد الموضوع، ويقدمها بعبارات رشيقة قريبة إلى الفهم؛ حتى تصير هذه المسائل جزءاً من ثقافة طالب العلوم الشرعية.

* أن دراسة مسالك التعليل من خلال اجتهادات الإمام أبي حامد الغزالي^(١) لها قيمة علمية خاصة، إذ تعد كتبه من أهم ما أنتجه الفكر الأصولي، فضلاً عن كونه أفرد الموضوع بتأليف خاص بين فيه للمسترشد، بعد أن ضاعت به سبل الفهم، مضائق التعليل ومسالكه التي أشكلت على معظم أهل العلم في عصره.

* أن مسالك التعليل مسالك تدللية تثبت بها الأحكام الشرعية، ومن هنا تأتي أهميتها في تحرير الاجتهادات المعاصرة...

(١) انظر ترجمته: تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٦٠هـ، ١٩٩٩م، ج٣، ص٤٢٢ وما بعدها.

* هذا، وإن هناك دافعا ذاتيا يكمن في اهتمام الباحث بهذا المشروع، فأول بحث أنجزه كان بعنوان: مسالك التعليل عند الإمام الغزالي: من الضبط المنطقي إلى التأسيس الأصولي من خلال (شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل)، ثم ثناه ببحث آخر عنوانه ب: ضبط مسالك التعليل عند الغزالي: محاولة في التنسيق المنطقي؛ ويأتي هذا العمل ثمرة لكلا البحثين.

● بؤرة البحث وأهدافه:

هذا البحث يهدف إلى الكشف عن حقيقة مسالك التعليل؛ أولا بذكر مداخل منهجية ومعرفية تؤمن فهما سليما لها عند الإمام أبي حامد، وعند غيره من الأصوليين، ثم بتحديد مفهوم واضح لها، وبيان أنواعها وأقسامها، والتعريح على خصائصها وبنياتها الاستدلالية، وكذا أهم وظائفها المنهجية.

ثم إن البحث يرصد مواطن الإشكال في كل مسلك تعليلي، ويستخرج خصائصه المنهجية، ويبين مرتبته وموقعه من النسق التعليلي، كما يبحث مكانم الضعف والقوة، غير قاصد الاستيعاب والإحاطة، بل الاقتصاد بقدر يظهر به المعنى.

كما يسعى البحث إلى إظهار طبيعة الاشتغال المنطقي داخل المنظومة الأصولية من خلال حيثية مسالك التعليل، ومن شأن هذا العمل أن يجلي عدة قضايا في علاقة المنطق بالأصول: بيانا لمدى الأعمال وشروطه.

ويؤكد الباحث أن دراسة مسالك التعليل عند الإمام الغزالي ستتخذ من كتاب شفاء الغليل المنطلق الأول، فهو قطب الرحى وعليه المدار، لكنه سيحاول مقابلة المضامين الواردة فيه بالكتب الأصولية والمنطقية الأخرى، لرصد تطور الوعي الأصولي للغزالي في هذه الحيشة.

هذا، وإن الرغبة التي يطمح البحث إلى الوصول إليها هي محاولة إنشاء نموذج نظري لمسالك التعليل، وصفا للمعالم الرئيسة، واستخراجا للبنيات الاستدلالية والعلاقات المنطقية.

● الدراسات السابقة في الموضوع:

لم يقف الباحث، إلى حدود كتابة هذه الصفحات، مع اجتهاد في الطلب، على دراسة عنيت بمسالك التعليل عند الإمام الغزالي، مع العلم أنه أفرد الموضوع بتصنيف خاص. وهذا ينم عن جهل أو تجاهل لقيمة إسهام الغزالي؛ فقد لاحظ البحث أن الباحث المغربي خالد زهري أهمل في كتابه تعليل الأحكام بين السنة والشيعه، كتاب شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، عند حديثه المصنفات السنية في التعليل. مع العلم أنه كان مطبوعا ومتداولاً بين الباحثين، إذ تم تحقيقه سنة ١٩٧٠م، مكتفياً بنماذج سنية عنيت بالتعليل بغير معناه القياسي^(١)؛ وهي نماذج في نظر البحث غير دالة، كما أنها ليست بقيمة شفاء الغليل.

(١) دار الهادي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م. انظر الصفحات: ١٧-٢٣.

وبعد الإيأس من طلب دراسة عنيت بمسالك التعليل عند الغزالي، يمم الباحث وجهه تلقاء الدراسات التي اهتمت بمسالك التعليل عند الأصوليين، بالأصالة أو التبع؛ وهذه بعض الملاحظات عليها:

- أن مجموعة من الدراسات أفردت بعض مسالك التعليل، كدراسة نور الدين الخادمي^(١)، المناسبة الشرعية وتطبيقاتها المعاصرة، وكتاب ميادة محمد الحسن، التعليل بالشبه وأثره في القياس عند الأصوليين^(٢). وهي دراسات وافية بمقصودها.

- يلاحظ اهتمام جزئي ومقتضب بمسالك التعليل في بعض المصنفات المعاصرة في علم المقاصد، وذلك عند الحديث عن طرق الكشف عن المقاصد.

- أن بعض الدراسات المنجزة حول القياس والتعليل تعرضت لمسالك التعليل: ككتاب كتاب محمد مصطفى شلبي تعليل الأحكام: عرض وتحليل لطريقة التعليل وتطورها في عصور الاجتهاد والتقليد،^(٣) وكتاب عبد الحكيم عبد الرحمان أسعد

(١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م. وقف الباحث من خلال اطلاعه على هذه الدراسة على رسالة دكتوراه

موسومة بعنوان مسالك التعليل عند الأصوليين، وأظهر التقصي أنها لم تطبع بعد.

(٢) مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠١م.

(٣) دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

السعدي، مباحث العلة في القياس عند الأصوليين^(١)، ككتاب عادل الشويخ تعليل الأحكام في الشريعة الإسلامية^(٢) وهذه الدراسات يفرع إليها كل متحدث عن التعليل، وهي على أهميتها وسبقها في الباب، كان بناؤها المنهجي مشوشا في بعض الأحيان؛ إذ لم تبين مسالك التعليل بيانا منسقا، مما يجعل تقاسيم بعض المسالك تتداخل وتكرر، كما أن اكتفاءها، في بعض المواطن، بمجرد حكاية أقوال الأصوليين دون الترجيح، من شأنه أن يحول دون تحصيل رؤية واضحة. هذا، فضلا عن تقصيرها بيان موقع مسالك التعليل ضمن النسق التعليلي . . .

ولعل الدراسات المتقدمة كدراستي شلبي والسعدي معذورة على التقصير الذي شابهما، نظرا لشح المصادر الأصولية التي لم تكن محققة وقت كتابتها^(٣).

(١) دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٦١هـ، ٢٠٠٠م.

(٢) دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، مصر، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

(٣) ولقد حال هذا العائق؛ أي شح المصادر، دون تحقيق إرب مصطفى شلبي في انتهاز المنهج التاريخي في دراسة التعليل عند الأصوليين؛ لأن المصادر لم تسعفه في ذلك؛ حيث يقول: «لكن وقفت عقبة المراجع بيني وبين ما أريد، بعد أن حاولت تذليلها فلن تلت لي اللين كله . . .». تعليل الأحكام، ص٧. ويقول السعدي معللا سبب ابتعاد الباحثين عن موضوع التعليل: «وتأتي صعوبته في تقديري من جانبين: الجانب الأول: قلة المطبوع من مراجع أصول الفقه الضخمة المعتمدة، وإنما أقول «قلة» لأن مصادر أصول الفقه المطولة والمدللة والمقارنة بالمذاهب، لا تزال في معظمها مخطوطة ضمن تراث الأمة الإسلامية، وليست في متناول الباحثين مما يصعب معه الرجوع إليها في جميع مراحل البحث . . .». مباحث العلة في القياس عند الأصوليين، ص٦-٧.

ويجب الإقرار بأن البحث استفاد مما كتبه المعاصرون، من الباحثين الجادين والعلماء والأجلاء، منهجا ومادة، إلا أن المجال لا زال يحتاج إلى مزيد تحرير، الأمر الذي يطمح البحث إلى الإسهام فيه بنزر يسير.

● منهجية البحث:

يمكن إجمال منهجية البحث في العناصر الآتية:

- القاعدة الكلية في منهجية البحث: هي عرض مسالك التعليل من خلال اعتماد منهج الاستقراء الأغلب في جمع المادة وترتيبها وفق نسق نظري واضح، وتعزيز ذلك بمنهج تاريخي تحليلي، تفسيراً وتعليلاً وتقويماً أحيانا ...
- التزام الموضوعية في مواطن الترجيح والمناقشة، والابتعاد عن الانتصار للتراث من غير جهة العلم.
- محاولة وضع عبارات قريبة إلى التعريف لبعض مسالك التعليل، مع التمثيل لها بما يوضحها. وكذا مناقشة الأمثلة إلا أن تكون واضحة جلية.
- اعتماد السلاسل الحجاجية لدكرو^(١)، لوضع ترتيب حجاجي لمسالك التعليل ...
- التزام الاختصار والتركيز على المعاني المهمة، لا سيما في

(١) O. Ducrot, Les échelles argumentatives, Paris, Minuit.

القضايا المتشعبة المتشعبة، حتى لا يضيع المقام بالقارئ فيخرج عن إطار البحث، مجتزئاً بالإشارة إلى التفاصيل الجزئية في الهامش لمزيد التوسع.

- التعريف بالمصطلحات ذات الارتباط الوثيق بموضوع البحث، وتجنب الترجمة للأعلام المعروفين، بما فيهم الإمام الغزالي.

- عزو الآيات القرآنية إلى سورها، وتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها دونما بيان لدرجتها.

- وضع بعض الأنواع والتقسيم، أحيانا، في أشكال هندسية تقريبا للفهم، وإعانة على التمثل الصحيح لها.

- كتابة بعض النصوص أو العبارات بخط مضغوط طلبا للاهتمام.